التّواصل بالتّرجمة
في ضوء النّظريّات الحديثة للمعنى
ترجمة معاني القرآن الكريم أنموذجا

عبد الخالق رشيد

جامعة وهران

1. موضوع التّرجمة

لقد ارتبطت الترجمة منذ زمن بعيد بنظريات المعنى، وكان معظم المنظرين لها من الناشطين في هذا الحقل المعرفي بالذات، لأجل ذلك فقد جاءت معظم المحاولات المنظرة للترجمة مركزة على أهمية المعنى باعتباره الركن الأساسي في الفعل الترجمي، وقد استُدل على ذلك بمسلمة فحواها أن المعنى أمر يمكن التثبت من هويته وتحويله إلى اللغة الهدف. ومن هذا المنطلق دأب الباحثون في هذا الحقل المعرفي على تعريف الترجمة بكونها «عملية استبدال معاني معبر عنها في اللغة المصدر بما يكافؤها ويعادلها من معان في اللغة الهدف»[1].

ورغم ما يخالج هذه المسلمة من تشكيك بفعل التطور الكبير الذي عرفته النظريات الألسنية الحديثة في مجال البحث الدلالي، بحيث «لم يعد المعنى واحدا أوحدا شفافا وحلّ الإشكال محلّ البيان والوضوح»[2]، ما زال المعنى يشكّل قطب الرحى في كل مقاربة تروم محاصرة الفعل الترجمي؛ فهذا

جورج مونان -وهو أحد المنظرين المعاصرين للترجمة- يقول في بعض تعاريفه للترجمة : «الترجمة هي نقل -وليس أيّ نقل معنى نص ما من لغة إلى أخرى»[3]؛ فالتعريف صريح في أنّ المعوّل عليه في الترجمة هو المعنى، رغم ما قد توحي به الجملة المعترضة من خصوصية في ترجمة المعنى؛ كالاهتمام بالسياق الموسع والمقام وطبيعة لغة الكاتب، وما إلى ذلك من الخصوصيات التي تعمل على إجلاء المعنى. ويُعرف «روجرلندن بيل» موضوع الترجمة بقوله : «عرَّف بعض النظريات الحديثة عملية الترجمة بأنها فك شيفرة النص في لغة المصدر وترميز النص في لغة الهدف»[4]. وليس فك الشيفرة وإعادة الترميز المتحدث عنهما إلاّ التفتيش عن المعاني الكامنة وراء الدَّوال، وإعادة تشكيلها بدَوال لغة الهدف. والرؤية نفسها يمكن أن نستشفها من تعريف «سعد مظفر الدين أسد» صاحب كتاب «علم الترجمة النظري» إذ يقول : «الترجمة هي عملية تحويل إنتاج كلامي من إحدى اللغات إلى إنتاج كلامي في لغة أخرى مع المحافظة على جانب المضمون الثابت؛ أي المعنى»[5].

ومن منطلق هذه التعاريف يمكن تصور المترجم كقارئ أوّل يحاول الوقوف على المعاني التي يتشكَّل منها النص المصدر، ثمّ يسعى -كمؤلف ثان- إلى اكتشاف وسيلة للتعبير عن هذه المعانى في لغة الهدف. إنّ فكرة أن المترجم قارئ بالمعنى المصطلح عليه في الاتجاهات النقدية المعاصرة، سيولِّد تعاريف أخرى للترجمة تركز في أساسها على أنّ الترجمة تأويل بلغة جديدة، والتأويل بلغة جديدة هو«نقل نص لغوي أوجزء من نص لغوي، بعد تأويله نصيا، إلى لغة غير لغته الأصلية»[6]. وبهذا المفهوم تكون «كل ترجمة في أساسها تأويلا، وتكون كل عملية ترجمة عملية إبداعية خلاقة» [7].

وباعتبار التأويل -بالمفهوم الذي تُنيطه به المدارس التفسيرية الهيرمنيوطيقية- نقطة المرتكز في عملية الترجمة، يكون المترجم أوّل مؤوِّل للنص المصدر، ويكون النص المترجم، أياّ كان، غير ثابت؛ إذ «إنّ تأويل النص المصدر هو احتمال لتفسيره -قد يكون مصيبا أوغير مصيب- ولأنّ التأويل بلغة جديدة عملية غير ثابتة أو مستقرة وغير واضحة للأفهام على الإطلاق»[8]. وبذلك يكون الفعل الترجمي عملية غير مأمونة الجانب، حيث أنها لا تعدو أن تكون إعادة تشكيل لتأويل المترجم للنص المصدر، لا للنص المصدر في حد ذاته.

ويذهب التفكيكيون إلى أبعد من ذلك حينما يرى أحد أقطابها وهو "دريدا" «أن المرء عند ترجمته نصا ما، فإنّه يقترب من الفكرة أوالتجربة الوهمية التي خلقت الأصل، وهو ما يطلق عليه مصطلح الاختلاف (la différence)، ذلك أن الترجمة تضطلع بدور إظهار الخلاف بين المخبر والجوهر»[9]. ويُفضي بنا هذا الكلام إلى القول بأن النص المترجم ما هو في حقيقة الأمر سوى ترجمة لنص مترجم سابق، وتصبح عملية الترجمة بمثابة «طقس روحاني يقوم على قبض روح النص وإعادة نفخه في النص المستهدف»[10]. وبلغة أقل ضبابية يمكن القول مع التفكيكيين إنّ كلّ ترجمة هي قراءة، وكل قراءة هي بمثابة إعادة تركيب النص الأصلي، مما يتضمن بالضرورة انتهاكا للأصل الأمر الذي يتمخض عنه استحالة خلق مكافئ نقيّ[11].

2. مكانة الشكل في الترجمة

بغض النظر عمّا في التعاريف السابقة من غلوّ في موقفها السلبي من الفعل الترجمي، وهو غلوّ ينبثق في الأساس من المنطلقات الفلسفية للنظريات التي تستند عليها وموقف هذه النظريات من الإبداع الأدبي، فإنّ التوجّه العام الذي يطبع معظم نظريات الترجمة يشدِّد على ضرورة الاهتمام بالمضمون، وعلى أن يكون الوفاء بالدرجة الأولى للمعنى، حرصا على ضمان سلامة عملية التواصل من جهة، ومراعاة لخصوصيات اللغة الهدف والمتلقي للنص المترجم؛ لأنّ المترجم مدرِك تمام الإدراك أنه يترجم لقارئ يختلف عقليا وشعوريا عن قارئ النص المصدر[12]. بل يذهب بعض المترجمين إلى أبعد من ذلك فيقرون، انطلاقا من الاختلاف بين اللغتين -المترجم منها والمترجم إليها- أنّه لا مفر في كل فعل ترجمي من الخسائر، ليست الشكلية فحسب، بل والمعنوية أيضا؛ فالترجمة كما يقول مونان : «لا تخضع لقانون كل شيء أو لا شيء (le tout ou rien)، وهي دائما وفقط البحث المتواصل للمعادل الأقرب للخطاب الذي يُنقل من لغة إلى أخرى»[13].

صحيح أنّ هناك مِن بين المنظرين للترجمة مَن حرص على ضرورة التزام وحدة الشكل والمضمون في الفعل الترجمي، واعتبر ذلك شرطا من شروط دقّة الترجمة[14]، لكن صعوبة نقل الشكل، باعتماد القواعد التي يتأسس عليها، يبدو

أمرا معجزا، مما حذا بمونان إلى القول : «الترجمة اتصال، والرسالة التي يهدف إليها المترجم تتألف من معنى ومبنى، وعليه أن ينقل المعنى كما هو، وأن ينقل المبنى إلى ما يساويه في لغته... وتتطلب ترجمة المبنى التقيُّد بتراكيب اللغة المنقول إليها شرط اختيار الأسلوب الذي يلائم النص»[15]. والواضح أنّ الذي قصده بالمبنى هو التركيب اللغوي وما يتأسس عليه من فنيات كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإيجاز والإطناب، والفصل والوصل ... إلخ. لكنّ الشكل يتعدى في بعض الأحيان هذه الفنيات ليطال في بعض الإبداعات البنية التي يتقمّصها العمل الأدبي، والعلاقات التي تنسِّق أجزاءه وتوحِّد إيقاعاته، حتى يكوِّن شكلا واحدا بحيث يبدو للقارئ وكأنه أفرغ إفراغا على حد تعبير الجاحظ.

إنّ الشكل بهذا المفهوم، والذي نعثرعليه في مجالات الإبداع التي يتخذ فيها الشكل بعدا دلاليا، كالشعر -خصوصا- والقرآن الكريم بوجه أخص، يستحيل -بإقرار شبه كامل- نقله كلية إلى اللغة الهدف. من هذه المعاينة يحق للباحث التساؤل عن قدرة الترجمة على التبليغ مع العلم أن دلاليّة القصيدة، وما يُشاكلها، لا تتوقف على المعاني والمشاعر المعبر عنها فحسب، بل وعلى النسق والإيقاع أيضا. ذلك أنّ المعاني والمشاعر تستمدّ جزءا من دلاليّتها من التشكيل الصوتي للوحدات اللغوية والإيقاع المنبثق من سكناتها وحركاتها وانتظام تفاعيلها وانسجام قوافيها، بل قد يصل الأمر في بعض الإبداعات الشعرية الحديثة إلى تغييب المضمون كليّة، فلا تَعْدُو القصيدة سوى شكلا يحكي دلالته. إن ترجمة مثل هذه الإبداعات بمنأى عن شكلها يعدُّ انتهاكا لما يصنع شاعريتها، وتغييبا لما هو أساس وجودها. فهل يمكن بعد ذلك أن نتحدث عن كفاءة الترجمة الإبلاغية، أم نقول مع القائل «أيها المترجم ... أيها الخائن»[16] !

3. القرآن ومعظلة الشكل

ليس القرآن بشعر، وإن كان في تشكيله يغازل الشعر في بعض مكوِّناته، بل إنه كلام معجز بنظمه وسحر بيانه ونصاعة بلاغته وقوة فصاحته، تحدّى العرب وهم أهل لسن، فلم يرفعوا التحدي وكم كانوا يرغبون ! وسلّموا له، واعترفوا على لسان فطاحلهم بأنه مغدق في أسفله مثمر في أعلاه، وأنّه يعلو ولا يُعلا عليه.

وممّا زاد في أمر التحدِّي أنّه لم يتم بما هو خارق للعادة؛ فالقرآن من كلام العرب لفظا وتركيبا، وعلى هدي لغتهم نزل، ووفق سننهم في القول فُصِّل. غير أنّ من مفارقات القرآن أنّه شكّل من اللّغة المتداولة بين العرب لوحات شاعريّة تتعانق فيها الألفاظ بالمعاني في ضروب من النّظم فجَّرت الطاقات التّعبيريّة للغة العربية دون أن تتجاوز القواعد التي تسمح بها طبيعة هذه اللغة.

من منطلق التسليم بهذا الإعجاز تباينت مواقف العلماء حول قابلية القرآن للترجمة؛ فإذا كان العرب، على ما هم عليه من براعة بلاغية، قد عجزوا عن الاتيان بمثل القرآن، فهل يمكن للغة أخرى أن تفي بهذا الغرض شكلا ومضمونا ؟ ذلك هو التساؤل الذي طرحه العلماء العرب على أنفسهم وتباينت وُجهات نظرهم حوله. وليس -ههنا- مجال لعرض هذه الآراء[17].

إنّ قضية الإعجاز البياني للقرآن تطرح قضية النظم القرآني، حيث تتعانق الألفاظ وتتناسق في علاقات تركيبية تعطي لكل لفظ دلالته من خلال تشكُّله الصوتي وموقعه ضمن التركيب وعلاقاته بنظرائه في السياق الضيق -سياق الآية- والسياق الموسَّع -سياق السورة أولا والقرآن بأكمله- وإذا كان بإمكان المترجم أن يمسك بمقصديّة الآية، وهو أمر نسبي، فإنّه عادة ما يعجز عن إعادة صياغتها بالشكل الذي وردت عليه في القرآن، فيضيع مع هذا العجز المحتوم شطر من مقصدية الآية، ناهيك عن إيقاعها وشاعريتها، وتضيع تبعا لذلك قدرتها على تحريك المشاعر وتليين القلوب. فالقرآن يستمد سحر بيانه من تكامل شكله ومضمونه.

وقد يكون في ترجمة الآية[44] من سورة «هود» خير دليل على ما نحن بصدد بسطه؛ يقول اللّه عز وجل : ﴿**وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾ (هود، الآية 44). فقد جاءت ترجمتها كالآتي :

Et il fut dit : « O terre ! Absorbe tes eaux ! O ciel ! Arrête ! » Et les eaux diminuèrent ; l'arrêt fut accomplis. Le vaisseau s'arrêta sur la montagne Djoudi, et il fut dit: « Loin d'ici les méchants ». (Kazimirski - p 195).

Et il fut dit : « O terre ! Engloutis tes eaux ! O cieux ! Arrêtez- vous !» Et

les eaux décrurent et le décret (divin) fut accompli, et l'arche s'arrêta sur (le mont) Djoudi, et il fut dit : « loin d'ici le peuple de ceux qui font le mal » (Montet - p 297).

إنّ النظرة السريعة لكلتا الترجمتين تفرز غياب الإيقاع الذي يصنع جمالية هذه الآية، وهو الإيقاع المترتب عن التشكيل الصوتى لألفاظها وتناسق عباراتها وإيجازها وتلاحقها في تسلسل زمني يوحي بفوريّة الأحداث، والدّال -فعلا- على أن الأمر قد صدر ممّن أمره كن فيكون. بل لقد أدت طبيعة اللغة الفرنسية إلى تجاوز الإيجاز في العبارة القرآنية بإظهار المضمر، كما يتبيّن في العبارتين التاليتين :

﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ L'arche s'arrêta sur le mont Djoudi

﴿بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ Loin d'ici le peuple de ce qui font le mal

وإذ عجز المترجمان عن الوفاء بمطلب الشكل الذي يصنع جانبا من إعجاز هذه الآية، فهل من سبيل بعد ذلك إلى الحديث عن كفاءة الترجمة في عملية التبليغ والتواصل ؟

4. الترجمة وإشكالية الدلالة

لقد اتضح ممّا سبق بسطه أنه إذا كانت هناك أولويّة تفرض نفسها على المترجم فهي بدون شك المحافظة على المضمون قدر الإمكان، ذلك أن الشكل لا يُلتَزم باحترامه الحرفي بحكم اختلاف اللغات في نمطية التركيب وقواعد الإيقاع، وغيرها من الأمور الشكلية. بل يشير معظم الباحثين إلى أنّ المترجم قد «يضطر غالبا، لكي يحافظ على جانب المضمون الثابث، إلى اللجوء إلى التحويلات في الترجمة، من تبديل واستبدال وحذف وإضافة»[18].

يحيل الحديث عن المضمون -بشكل أو بآخر- على المعاني، ذلك أن المضمون في أبسط تصوراته هو المعاني المعبَّرعنها باللغة ضمن سياقات يحكمها توزيع الألفاظ داخل السلسلة الكلامية، وفقا لنظام علائقي معيَّن، يأخذ بعين الاعتبار مقاصد المتكلم وملابسات الموقف. هذه القيمة التي تحتلها المعاني في الفعل

الترجمي هي التي دفعت بمعظم المنظرين إلى تحديد المهمة الأساسية للترجمة في نقل المعاني، كما سبق الذكر.

وإذا تأكد هذا الطرح، واستقر لدينا أن الترجمة ليست نقلا للمادة الصوتية أو للمظهر المادي من الدليل اللغوي، وإنما هي نقل للمعنى، جاز لنا أن نتساءل: هل المعاني كلّها قابلة للنقل ؟ سنحاول مقاربة هذا التساؤل من خلال التمييز بين ثلاثة أنواع من المعاني؛ نوعان متعلقان باللفظ وهما: الدلالة الذاتية والدلالة الإيحائية، والثالث متعلق بالدلالة التركيبية.

1.4. الدّلالة الذّاتيّة

يُقصد بالدلالة الذاتية، أوالوضعية، الدلالة التي تحيل عليها كلمة ما، والتي يُفترض أن تكون الدلالة الأصلية التي تواضع المتحدثون باللغة عليها للإشارة إلى شيء ما. وقد يبدو لغير المتمرس بالترجمة، الجاهل بإشكاليات الدلالة، أن الأمر بسيط في نقل الدلالات الذاتية من لغة المصدر إلى لغة الهدف، إذ لا يُعْدَم أن يوجد للرمز ذي الدلالة الوضعية الثابتة في لغة المصدر مقابل يؤدي معناه في لغة الهدف، وإنما تكمن الصعوبة -إن وجدت- في نقل الدلالات الحافة أو الإيحائية التي تزاحم الدلالة الذاتية وتقاسمها الرمز اللغوي نفسه، فتكون كالظلال التي تلف الشيء فلا يظهرجوهره. ومثل هذه الدلالات قد لا توجد لها رموز لغوية، في لغة الهدف، قادرة على استيعاب حمولتها الدلالية، لذلك كثيرا ما يختلف المترجمون للنص الواحد في ترجمتها.

لكن الأمر على خلاف ذلك تماما، إذ كثيرا ما يعجز المترجم عن إيجاد مقابل في لغة الهدف يستطيع أن يعبر بوفاء على الدلالة الذاتية لكلمة ما في لغة المصدر، وما ذلك إلا لأنّ اللغات لا تشترك في الرصيد ذاته من العلامات اللغوية، ولا في السياقات الاجتماعية والثقافية التي تتناسق مع العلامة اللغوية؛ فاللغة كما يقول "سابير" (Sapir) هي : «معيار الحقيقة الثقافية لأمّة ما، وأن الأفراد يعيشون تحت رحمة اللغة التي تواطأوا على استعمالها في مجتمع ما، كما أن العادات اللسانية الثقافية تحدد حقيقة اجتماعية متميزة. وحيث إن الحقائق الاجتماعية تتباين من مجتمع إلى آخر، فقد بات من المستحيل أن تتشابه لغتان

تماما، ذلك لأن العوالم التي تعيش فيها المجتمعات عوالم غير مثالية، وليست مجرد عالم واحد ذي تسميات مختلفة»[19]. وفي قول «سابير» كثير من الوجاهة، قد تدلنا عليها الدراسة المقارنة للحقول المعجمية في لغات مختلفة؛ ففي حين نجد حقل الإبل-مثلا- يزخر بمئات الكلمات الدالة على خصوصيات هذا الحيوان الذي قاسم الإنسان العربي صحراءه القاحلة الموحشة، لا نكاد نعثر له في اللغات الأوروبية سوى على بضع كلمات قد لا تتعدى أصابع اليد الواحدة. وقس على ذلك حقولا أخرى كحقل المأكولات وحقل اللّباس... إلخ.

وقد يوغل بعضهم في إبراز تفرُّد اللغة الواحدة عن قريناتها درجة يذهب معها إلى القول إن «الكلمة لا تكون بالنسبة لكل إنسان إلا مجموع تجربته الشخصية والذاتية حول الشيء المعين من هذه الكلمة، فلا نجد أبدا لشخصين اثنين نفس الصورة العقلية لنفس الكلمة»[20]. وتلك هي رؤية «الظاهراتية» للغة التي تنتهي إلى الاعتقاد بأنّ اللغة نتاج مجموع تجارب متكلِّميها، وبالتالي «فلا تخزِّن لغتان أبدا نفس التجارب والصور وأشكال الحياة والفكر وأساطير العالم»[21]. وهو طرح مستل في أساسه من مقولة «عبقرية اللغة» القائمة على اعتبار اللغة طريقة خاصة لرؤية العالم. ولعل فيما سبق من الكلام ردّ على من يعتقد سهولة نقل الدلالات الذاتية في الفعل الترجمي.

ولمزيد من التوضيح نورد فيما يلي ترجمة لفظة من القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية من خلال أربع ترجمات لإبراز الخلاف بين المترجمين في ترجمة كلمة بالذات. والكلمة المقصودة هي لفظة «مُهْطِع» الواردة في ثلاثة مواقع من القرآن الكريم (إبراهيم 43 - المعارج 36 - القمر 8) في صيغة الجمع على وزن اسم الفاعل للدلالة على حال الكفار في موقف يرتبط بيوم البعث.

تدل هذه الكلمة في اللغة العربية على الإقبال، لكنه إقبال مخصوص يختلط فيه الإسراع بالخوف ومدّ العنق وتصويب النظر إلى الشيء المقبَل عليه في ذل وخشوع[22]. وقد جاء في تفسير الزمخشري للفظة «مهطعين» الواردة في سورة المعارج : «﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين نحوك مادّي أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك»[23]. وقال في تفسير سورة إبراهيم : «﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِي﴾ مسرعين إلى الداعي، وقيل الإهطاع أن تقبل ببصرك على المرئي تديم النظر إليه لا

تطرف»[24]. وقد فهمها مونتيه (Montet) بهذا المعنى، لذلك وجدناه يستخدم في ترجمته لها عبارة :

Allant toujours en avant les yeux immobiles et fixes droit devant eux.

وقد علّق على ترجمته هذه بقوله :

Il n'y a qu'un seul mot arabe pour tout ce membre de phrase (8 mots)

وإنّ في استعمالها المخصوص بمقام البعث ما يعزز قدرة هذه الكلمة على استيعاب هذه الدلالات، إذ لو كانت تعني الإسراع وحده لكان في اللغة متسع من الكلمات لتأدية هذا المعنى كأسرع وهرع، إلخ.

ولعل هذه الدلالة المركبة التي تنطوي عليها كلمة «مهطع» هي التي أدت بالمترجمين إلى أن يختلفوا في نقلها إلى اللغة الفرنسية كما يُظهره الجدول التالي :

الآيات / الترجمة	إبراهيم 42	القمر 08	المعارج 36
Montet	Allant toujours en avant les yeux immobiles et fixes droit devant eux	Ils se recipiteront en avant	Se precipiter
Masson	Ils viendront suppliants	Ils se precipitèrent	Se precipitent
Ben mahmoud	acoureront	Repondant à l'appel en courrant	S'agiter à courir
Boubekeur	Coureront	le cou tondu	Se hater le cou tondu

إن ما يمكن ملاحظته من خلال هذا الجدول هو لجوء المترجمين إلى عبارات متفاوتة الطول لتأدية معنى كلمة «مهطع»، وقد بلغت في إحدى الترجمات، وهي ترجمة «مونتيه» ثماني كلمات. أضف إلى ذلك اختلاف المترجم الواحد في نقل

دلالة هذه الكلمة من موقع إلى آخر، رغم أن القرائن الحالية تشير إلى اتّفاق المقام في المواقع الثلاثة التي وظِّفت فيها هذه الكلمة في الذكر الحكيم.

ويبيّن الجدول من جهة أخرى أن تركيز معظم الترجمات كان على معنى الإسراع الذي يلابس دلالة «مهطع» (s'agiter-se hater- se précipiter). وقد حاول بعضهم ملامسة الدلالات الأخرى (le cou tendu) بمعنى «مادّا عنقه» و(appeuré) بمعنى «خائف»، وقد جانب بعضهم دلالة هذه الكلمة، كما هو الحال في ترجمة «ماسون» (ils viendront suppliants). ويبدو في كل الأحوال أن اللغة الفرنسية لم تسعف هؤلاء المترجمين باللفظ الذي يؤدي معنى «مهطع»، بحيث بقيت دلالة هذه الكلمة مغيَّبة على من يتداول القرآن باللغة الفرنسيّة.

والأمثلة عن إشكالية نقل الدلالات الذاتية كثيرة، يمكن تتبعها من خلال اختلاف المترجمين في ترجمة النص الواحد كالقرآن الكريم مثلا.

2.4. الدّلالة الحافة (الإيحائيّة)

تحتل الدلالات الحافة أوالمصاحبة -بحسب طبيعتها- أو الإيحائية -بحسب وظيفتها- (sémes virtuels) موقعا مرموقا في عملية إنتاج الكلام؛ فهي سمات دالة إضافية يعزِّز بها مستعمل اللغة السمات الخاصة (sémes spécifiques) التي تتشكل منها الدلالة الذاتية للكلمة؛ وبمعنى آخر، يمكن تصور الدلالات الحافة على أنها ضرب من القيمة الثانوية المضافة لدلالة الكلمة، أو نوع من «لقيمة المضافة المقترحة التي تحمِّل الدال والمدلول بشحنة أو بصدى (Résonnance) دلالي آخر إضافة إلى ذلك الذي تدل عليه في استعمالها العادي»[25]. وهي عند مارتيني «كل ما هو في استعمال الكلمة ليس ملكا لتجربة جميع مستعملي هذه اللغة»[26].

ويمكن استنادا إلى هذا التقديم الأوّلي استخلاص مجموعة من الخصائص المميزة لطبيعة الدلالات الحافة واستعمالها :

1- لا تخضع الدلالات الحافّة في توليدها واستعمالها لأي ضابط، فهي حرة يستمدها المستخدم لها من التجربة الخاصة أو تجربة الجماعة التي ينتمي إليها. وهي ليست حكرا على كلمة دون أخرى، بل «إن كل كلمة مهما كانت موضوعيتها قابلة لأن تحمّل بشحنة من الدلالات الايحائية»[27].

2- يمكن الحديث عن دلالات حافة خاصة بلغة مرسل ما -كاتب مثلا- (idiolecte d'auteur) وهي أكثر الدلالات الحافة إيغالا في الذاتية حتى أن بعضهم ينعتها بالدلالات الحافة من الدرجة الثانية (les connations de second niveau)، لأنها تتولد في بعض الأحيان من استعمال إيحائي لكلمة محملة أصلا بشحنة إيحائية.

وفي وَسع هذا الضرب من الدلالات الحافة «أن يتمظهر داخل أي وحدة لسانية مهما كانت، ويمكن لمحتواها أن يتغير وفقا للسياق الذي يوظف فيه»[28]. كما يمكن الحديث عن دلالات حافة خاصة بفئة اجتماعية ما، مما يشكل ما يعرف بلهجة الجماعة (sociolecte). وتنجم هذه الدلالات عن الاستعمال المنحرف من قبل فئة اجتماعية أو ثقافية للكلمات من حيث محتواها الدلالي في استخدامها العادي، ويمكنها أن تنتقل بشحناتها الإيحائية إلى الإنتاج الأدبي من خلال استعارات (emprunts) الكتّاب لها لدواعي فنية.

3- يخضع توظيف الدلالات الحافة لدواعي خاصة تعبر عن ذاتية مستعملها إزاء موضوعه وموقفه من اللغة؛ فهي محاولة منه لتجاوز نمطية اللغة من جهة، وعجزها (أي اللغة) عن الإيفاء بأكثر المعاني رسوخا في الذات من جهة أخرى.

4- تتميز الدلالات الحافة بطابعها اللاصطلاحي (non-conventionnel)، وبالتالي فهي «متغيرة بحسب طريقة تقبلها... وتختلف وجهات النظر إليها، لأنها في آن واحد من مشمولات الذرائعية والأسلوبية وعلم الدلالة... وقد يدركها القارئ الواحد بطرق مختلفة في الأوقات المتعاقبة وفي الظروف المختلفة حسب تجربته وحالته النفسية وما إلى ذلك»[29]. وعليه فإن تحليلها واستنطاق كوامنها يبقى مرتبطا بتتبُّع توزيعها داخل القول أو العبارة، وبمعنى آخر فإن تحليل الدلالات الحافة يرتبط عضويا بتحليل القول أو العبارة[30].

هذه الخصوصيات المتعلقة باستعمال الدلالات الحافة، لاسيما في الحقل الأدبي، دفعت بكثير من الباحثين إلى الإقرار بصعوبة نقلها إلى لغة أخرى، بل واستحالة ترجمتها إطلاقا، وأن أي محاولة تروم ذلك ستشوِّه النص ولا تقدم عنه سوى صورة ناقصة، إذ لا مفرّ، أثناء الترجمة من التضحية ببعض السمات المتعلقة بالدلالات الحافة[31].

ومن الطريف أن بعضهم قد حدد طبيعة الأسلوب الأدبي باستعصائه على الترجمة؛ وفَحوى ذلك أننا إذا عرضنا كلاما على الترجمة وتبينت استحالة نقله إلى لغة أخرى، كان ذلك دليلا على أسلوبيته؛ يقول أحد الباحثين مؤكدا هذا الطرح : «في نظري إنه باستطاعتنا الوقوع على مظان الأسلوب عبر طريقة تطبيقية بسيطة، نأخذ فيها أي نص يُعد أدبيا أو يسمى كذلك ونثبت أدبيته انطلاقا من دراسة الأسلوب، فنترجمه إلى لغة أخرى، فإذا لم نستطع ترجمته فهو أسلوب»[32]. وقد رُدَّ على هذا الرأي بكلام طويل يهمنا منه أن صاحب الردّ أشار إلى أن الأسلوب الأدبي لم يعد متصلا بنظام الجملة، بل أنه يتخذ نظام النص أساسا له[33].

فهل من مجال -بعد هذا التقديم- للحديث عن أمانة الترجمة وكفاءتها في عملية التبليغ ؟ وقد يصبح هذا التساؤل أكثر إلحاحا بعد معاينة مأزق المترجمين في نقل لفظة «الأعراب» المستعملة في القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية.

وردت هذه الكلمة في عشرة مواطن من القرآن الكريم؛ سبعة منها في سورة التوبة، وهي الآيات (90 - 97 - 98 - 99 - 101 - 120) واثنتان في سورة الفتح، الآيتان (11 - 16)، وواحدة في كل من سورة الأحزاب، الأية (20) وسورة الحجرات الآية [14].

لكلمة «لأعراب» في القرآن الكريم وفي التصور الاجتماعي آنذاك معنى مخصوص؛ فهي بالإضافة إلى دلالتها على فئة من الجنس العربي من سكان البوادي والقفار، تشير أيضا إلى ما في طبيعة هؤلاء من خشونة ومشاكسة وقلة اللياقة بسبب عزلتهم داخل الصحراء وشح طبيعتهاوانعتاقهم من كل سلطان[34]. لذلك فكلمة «الأعراب» تُستعمل في السياقات المشحونة بالغلظة والتَّيْه وسوء الأخلاق؛ يقول ابن المنظور معرفا بالسياق الاجتماعي لكلمة الأعراب: «رجل أعرابي إذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد للكلإ وتتبع لمساقط الغيث. ويُجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب. والأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح وهش له، والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب له. فمَن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية فهم عرب»[35].

يظهر جليا من النص السابق وما يشاكله، ما لكلمة الأعراب من دلالة حافة تنم عن اتضاع أمر هؤلاء الناس في أعين العرب سكان الحواضر. وقد اقتصر استعمال القرآن الكريم لهذه الكلمة على هذا التصور؛ يقول الزمخشري مفسرا قوله تعالى ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ (التوبة-الآية 97) : «الأعراب أهل البدو وهم أشد كفرا ونفاقا من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ونشأتهم في بُعد عن مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة»[36]. ويعلق آخر على ما ورد في هذه الآية وغيرها مما فيها ذكر الأعراب قائلا : «والذي لا يفرق بين العرب والأعراب والعربي والأعرابي ربما تحامل على العرب بما يتناوله في هذه الآية وهو لا يميز بين العربي والأعرابي»[37].

لقد استعمل المترجمون عدّة كلمات وعبارت محاولة منهم لنقل دلالة كلمة الأعراب إلى اللغة الفرنسية، وهو ما يظهر من خلال الجدول التالي :

Boubkeu	Benmahmoud	Masson	Montet	الكلمة / الترجمة
- bédouins - Arabes - bédouins - Arabes - nomades	- paysans - nomades - bédouins - Arabes de compagne	- bédouins	- Arabes de compagne - arabes - arabes nomades - arabes du désert	**الأعراب**

يستنتج الدارس لهذا الجدول مجموعة من المعطيات نلخصها فيما يلي :

1- عدم اتفاق المترجمين على لفظ واحد يؤدي مفهوم كلمة الأعراب بما تحمله من دلالات حافة، بل لقد لجأ بعضهم إلى عدة كلمات لتأدية معنى الأعراب، فهي بالنسبة لابن محمود -مثلا- (القرويون - الرّحل - البدو - البادية - العرب). وتؤدَّى عند بعضهم بلفظ العرب مضافا إليه صفة من الصفات المتعلقة بالبعد الاجتماعي أو الجغرافي كالبداوة والتّرحُّل أو الصحراء. ورغم تنوع الكلمات والتراكيب المستعملة لتأدية معنى الأعراب إلا أن لا واحدة منها استطاعت أن تحيط بالدلالات الحافة المرافقة لكلمة الأعراب في الاستعمال القرآني، ونقصد بذلك الإيحاء بمعاني الخشونة والطيش وقلة اللياقة.

2- عمد بعض المترجمين إلى ترجمة كلمة الأعراب بالعرب فحسب، وهو خطأ كبير يؤدي إلى سحب الأوصاف التي نُعت بها الأعراب على العرب كجنس، وهي أوصاف فيها حطّ واتّضاع مما لا يتوافق وما أراد القرآن الكريم التعبير عنه. وقد حذَّر كثير من علماء الإسلام من مثل هذا التعميم، وألزموا من يتصدى لتفسير الآيات التي انطوت على ذكر الأعراب أن يفرقوا بين العرب سكان الحواضر والأعراب سكان البوادي والفيافي[38].

3.4. الدلالة التركيبية

تندرج ضمن الدلالة التركيبية كل الدلالات المستفادة من وظيفة اللفظ داخل السياق، والتي تأخذ بعين الاعتبار الرتبة (التقديم والتأخير) والحذف والذكر والتعريف والتنكير والفصل والوصل والإعراب، وما إلى ذلك مما يحدد وظيفة اللفظ وأثره على الدلالة ضمن السياق. ويخضع الأمر -ههنا- إلى طبيعة اللغة دائما، وهي الطبيعة التي تحدِّد هيكلة الجملة ونظام العلاقات الذي يربط أجزاءها، وتأثير تموقع اللفظ داخل التركيب على الدلالة.

وقد يؤدي اختلاف اللغات في هذا المجال بالذات إلى مخالفة نمط تركيب الجملة في اللغة المصدر عند ترجمتها، فيُظهَر المحذوف -مثلا- أو العكس، أو تُلغى الرتبة أو يُستعان بأوصاف لتحديد وظيفة اللغة ضمن التركيب.

ويبرز النمودج التالي؛ وهو ترجمة الآية الثانية والثمانين من سورة «يوسف»، كيف اضطر المترجم إلى إظهار المُضمَر، وعمد إلى إضافة كلمات رآها ضرورية لإجلاء المعنى، فإذا به يجني على الدلالة. لقد ترجم كل من «مونتيه» و«كزميرسكي» قوله تعالى «واسأل القرية التي كنا فيها» بما يلي :

Montet : fais une enquête dans la ville ou nous étions. (p. 130)

Kasimirski : fais prendre des renseignements dans la ville ou nous. (p. 210)

تبرز الترجمتان كيف اختفى الحذف الذي بنيت عليه الآية، وهو الإجراء الأسلوبي الذي صنع جزءا من بلاغتها، إذ تحوّل السؤال من الأهل، وهم الأحق بأن يُسألوا، إلى القرية، وهي جماد عاجز عن النطق. وفي هذا الحذف إبراز لأمر مهمّ خلاصته أن إخوة يوسف عليه السلام لما عجزوا عن إقناع أبيهم يعقوب عليه السلام بأنهم

صادقون، استنجدوا بالجماد ليؤازرهم وكأن لسان حالهم يقول : إنّ لم تصدقنا فاسأل القرية بحجرها وشجرها وسائر ما فيها من جماد، فإن نطقت، وأنت نبيّ صاحب معجزة، ستخبرك بأنّنا لا نقول غير ما رأيناه من أمر أخينا بنيامين[39]. وذلك أقصى ما يستنجد به من يرى نفسه على حق ويريد أن يثبت صدقه لمن يكذِّبه. هذه الدلالة المفعمة بالإيحاء المُجلية لحال إخوة يوسف، وهم بين أيدي أبيهم الشيخ الذي فُجع -قبلا- في يوسف، استطاع القرآن أن يصورها تصويرا مؤثرا بمجرد حذف نُقل بموجبه فعل الفاعل إلى المضاف إليه عوض المفعول به المحذوف.

5. تقييـم

بعد ما سبق طرحه في هذا البحث المتواضع، فهل يمكننا الانتقال من مجرد الشك في قدرة الترجمة على التبليغ إلى اليقين الذي يُسلمنا إلى رفض الترجمة، على اعتبار أنها في أحسن أحوالها تشويه للأصل ؟ في الجواب على هذا السؤال بالإيجاب كثير من التَّجنيِّ، لأن النماذج المعتمد عليها في هذا البحث نماذج منتقاة بكيفية تبرز نقائص الترجمة. ثم إن للترجمة إيجابيات لا ينكرها إلا جاحد قصير النظر. صحيح أنه لا توجد ترجمة مثالية «ذلك أن كل ترجمة هي مشروع اقتراح لعملية ترجمة، وبهذه الصفة تكون أيّة ترجمة قلقة ومؤقتة»[40]، مما يبرّر تكرار الترجمات للنص الواحد دون أن تفرض إحداها نفسها كترجمة معتمدة نهائيا.

لكن ما الداعي-في حقيقة الأمر- إلى ترجمة نهائية، بل ولما البحث عن ترجمة مثالية والنص الإبداعي فضاء مفتوح يمتلك سر خلوده في انفتاحه على شتى القراءات ؟ وكيف نطالب المترجم بإنجاز الترجمة المثالية وهو مطالب بأن يكيّف النص المصدر مع خصوصيات اللغة الهدف والقارئ الذي تتوجّه إليه الترجمة؟ إن المترجم كالمؤلف يرغب في أن تكون له مقروئيَّته، وهذا مطلب مشروع.

لقد شكلت الترجمة على مرّ العصور الأداة الضامنة للتواصل بين الشعوب والحضارات، وما كان للحضارة أن تنمو وتترعرع إلا بترجمة ما توصلت إليه الحضارات السابقة من فتوحات علمية وروائع إبداعية. فالترجمة هي بحق عامل من عوامل النهضة، وقد أصبحت في عصرنا هذا أكثر من ضرورة، فهي ضمان مسايرة الركب الحضاري المتسارع. وقد لا نجد أبلغ ما نختم به هذا التقويم

للفعل الترجمي من قول "بول أنجل" (P. Angels) وهو يشيد بقيمة الترجمة : «وإذ ينكمش هذا العالم كبرتقالة هَرِمَة وتهرع جميع الشعوب، ومن مختلف الملل والنحل بعضها نحو بعض طوعا وكرها، فإن خير نصيحة تُزجى للأجيال، التي عليها أن تعض عليها بالنواجد لما تبقى لها من عمر على سطح المعمور هي : ترجم لئلا تموت، إذ قد تعتمد حياة كل مخلوق على البسيطة في يوم ما على ترجمة سريعة ودقيقة لكلمة ما»[41].

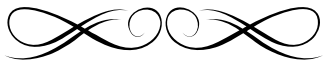

الإحالات

(1) علاء الدين أحمد، الترجمة والعولمة، مقال منشور في مجلة (البحرين الثقافية)، ع 26، اكتوبر 2000، ص 136.

(2) محمد عجينة، نظرية الترجمة، ضمن كتاب «الترجمة ونظرياتها»، لمجموعة من المؤلفين، ص 262.

(3) اللسانيات والترجمة، جورج مونان، ص 59.

(4) ياسمين فيدوح، انطوان جالان مفجر شاعرية الشرق، مقال منشور في مجل الآداب الأجنبية، ع 115، ص 21.

(5) د. مظفر الدين أسد، علم الترجمة النظري، ص 39.

(6) عمر شيخ الشباب، التأويل ولغة الترجمة، ص 53.

(7) المرجع نفسه، ص 56.

(8) المرجع نفسه، ص 83.

(9) الترجمة والعولمة، ص 136.

(10) ينظر : المرجع نفسه، ص 137.

(11) الترجمة والعولمة، ص 136.

(12) ينظر : المرجع السابق، ص 135.

(13) اللسانيات والترجمة، ص 92.

(14) ينظر : علم الترجمة النظري، ص 46.

(15) المسائل النظرية للترجمة، جورج مونان، ص 23.

(16) عنوان مقال لمحمد عبد الله الشفقي، مجلة العربي، ع 275، أكتوبر 1981.

(17) ينظر في هذا الصدد كتاب : قضايا ترجمة القرآن، لعبد النبي ذاكر.

(18) ينظر : علم الترجمة النظري، ص 47.

(19) الترجمة والعولمة، ص 23.

(20) اللسانيات والترجمة، ص 23.

(21) المرجع نفسه، ص 23.

(22) ينظر : لسان العرب، ص 8/372.

(23) الكشاف للزمخشري، ص 4/160.

(24) المصدر نفسه، ص 2/382.

(25) Introduction à l'analyse stylistique- p 162.

(26) Clefs pour la linguistique- p 164.

(27) Introduction à l'analyse stylistique- p 91.

(28) Ibid -p 109.

(29) نظرية الترجمة، ص 268.

(30) Introduction a l'analyse stylistique- p 85.

(31) ينظر : علم الترجمة النظري، ص 89.

(32) ندوة فصول، مجلة فصول، م 5/ع 1 أكتوبر 1984، ص 220.

(33) المرجع نفسه، ص 221.

(34) ينظر : التفسير الكبير للرازي، ج 16 /ص 166.

(35) لسان العرب، ص 1/ 586.

(36) الكشاف، ص 2 /209.

(37) لسان العرب، ص 1/586.

(38) لسان العرب، ص 1/586.

(39) ينظر : البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص 3/219.

(40) التأويل ولغة الترجمة، ص 138.

(41) الترجمة والعولمة، ص 134.

المراجع

أ- باللغة العربية :

1- أسعد مظفرالدين الحكيم، علم الترجمة النظري، دار طلاس، دمشق، ط 1، 1989.

2- جورج مونان، اللسانيات والترجمة، تر: حسين بن رزوق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 2000.

3- ابن منظور، لسان العرب، منشورات دار صادر، بيروت، ط 1، 1992

4- جورج مونان، المسائل النظرية للترجمة ، تر: لطيف زيتوني، دار المنتخب العربي، لبنان، ط1، 1994.

5- حسين محمد مخلوف، كلمات القرآن (تفسير وبيان)، مكتبة الرحاب، القاهرة، دت.

6- الزركشي، البرهان في العلوم القرآن، تح : د. يوسف عبد الرحمن المرعشي وآخران، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1994.

7- الزمخشري، الكشاف، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1977.

8- عبد النبي ذاكر، قضايا ترجمة القرآن، سلسلة شراع، طنجة، ع 45، ديسمبر 1998.

9- علاء الدين أحمد، الترجمة والعولمة، مجلة البحرين الثقافية، ع 26، أكتوبر 2000.

10- عمر شيخ الشباب، التأويل ولغة الترجمة، مطبعة العجلوني، دمشق، ط 2، 2000.

11- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، دار احياء الثراث العربي، بيروت، ط 3، دت.

12- محمد عجينه، نظرية الترجمة، ضمن كتاب الترجمة ونظرياتها لمجموعة من المؤلفين، بيت الحكمة، تونس، 1999.

13- ياسمين فيدوح، انطوان جالان مفجر شاعرية الشرق، مجلة الآداب الاجنبية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ع 115، 2003.

14- مجلة فصول، المجلد الخامس، ع 1، اكتوبر 1984.

ب- باللغة الفرنسيّة :

1- le coran - traduction et notes de Nourredinne Benmahmoud - dar el fikr - Beyrouth.

2- le coran - essai d'interpretation - Denis Masson - édition gallimard 1980.

3- le coran - traduction intégrale - Edouard Montet - Payot- paris 1963.

4- le coran - traduction et commentaire de hamza boubekeur - enag -Alger - 1994.

5- Le coran - traduction de Kasimirski - maxi livres-France 2002.

6- Clefs pour la linguistique - Georges Mounin - Seghers- Paris - 1971.

7- Introduction à l'analyse stylistique - Catherine Fromilhague et Anne Sancier - Gauthiers Villars- Paris 1991.